

نظرية الحجاج عند البلاغيين القدامى – الجاحظ أنموذجا-

The theory of pilgrims according to the ancient rhetoricians

- Al jahid as a model-

عبير عماجي *

باتنة 1

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

abir.amadji@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 2026-05-12

تاريخ الإرسال: 2025-04-30

ملخص:

يمثل الجاحظ فترة تأسيس البلاغة، فالمتأمل في الدرس البلاغي عنده يدرك وجود بعد حجاجي في دراسته لها وتكمن أهمية البحث في دراسة مراحل تطور البلاغة، وتجلي الحجاج جزءا منها يسهم في تركيب الخطاب، ووصوله إلى المتلقي بغرض إقناعه وإفهامه، وكان هذا من خلال طرح الإشكالية الأتية: كيف ظهرت البلاغة في بدايتها وإلى أي مدى كان الحجاج حاضرا في بلاغة الجاحظ؟، أما أهداف الدراسة فهي تروم الكشف عن الحجاج ودوره في اقناع المتلقي في إطار البلاغة، وإلى أي مدى استطاع الجاحظ أن يتقدم بالبلاغة العربية ويؤسس لها. وسار البحث وفق المنهج التاريخي والوصفي التحليلي أما نتائج البحث فأبرزها معرفة المحطات التي مرت عليها البلاغة العربية، ووقوف الجاحظ على الحجاج كأداة من أدوات البلاغة تلعب دورا كبيرا في الخطابة لإقناع المتلقي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الجاحظ؛ الحجاج؛ الخطاب.

Abstract:

Al jahid represents the founding period of rhetoric. The contemplator of his rhetorical lesson sees the existence of pilgrim dimension in his study of it. The importance of research is a study of the stages of development of rhetoric. This was done by posing the following question: how did rhetoric appear in its infancy?, The research proceeded according to the historical and descriptive analytical method. As for the results of the research, The most prominent of them is knowing the stations that the Arabic rhetoric has gone through.

Keywords: Keywords : Rhetoric؛ Al jahid؛ Pilgrims The speech

تعود الجذور الأولى للبلاغة في التراث العربي إلى العصور الأولى، من العصر الجاهلي مع نقاده وشعرائه الذين كانوا الذين كانوا بلاغيين بالفطرة، وتظهر بلاغتهم في أشعارهم وآراءهم النقدية ومع دخول الإسلام ونزول القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الكلام البليغ الذي أدهش العلماء وأخذ بمجامع قلوبهم بإعجازه وبيدع أسلوبه ونظمه الذي لا طاقة للبشر على أن يأتوا بمثله، فقد ارتبط التفكير البلاغي عند العرب بالتفكير الديني الأخلاقي، وظهرت الخطب التي استعملت كوسيلة للدعوة إلى هذا الدين ونصرتها، واستعملت فيها الحجج لإقناع الناس واستمالتهم، وظل هذا حالهم إلى عصر بني أمية الذي شهدت فيه الخطبة تطورا كبيرا، بعدها ومع بداية عصر التدوين، وبداية ظهور علماء اهتموا بالبلاغة وقعدوا لها، ودوّنوها من بينهم و - يمكن القول أولهم- الجاحظ الذي ألف كتابا في البيان، أصّل فيه للبلاغة، واتخذ من الخطبة أداة لمحاربة الشعوبية، واستخدم فيها الحجاج كآلية للدفاع عن الدين والعربية، فكان لكل من البلاغة والحجاج حظا وافرا من الذكر في كتابه وهو ما سنقوم بالتطرق إليه في هذا البحث الذي تكمن أهميته في تتبع مسيرة البلاغة كعلم بدأ مشافهة ثم تطور ودوّن مع علماء البلاغة، ثم الكشف عن البلاغة والحجاج من خلال التعريف بهما وإبراز العلاقة التي تجمعهما وكيف ظهرت هذه العلاقة عند الجاحظ، وتناولها في كتابه البيان والتبيين.

أما الهدف من هذه الورقة البحثية فهو إمطة اللثام عن الجهود التي بذلها الجاحظ للتأصيل لهذا العلم، والوقوف عند الحجاج كآلية لها مكانتها في بلاغة الخطبة.

من هنا يمكن أن نطرح الإشكالية الآتية: ما هي أبرز المراحل التي مرت بها البلاغة حتى وصلت إلى الجاحظ؟ فيم يكمن دور الجاحظ للتأسيس لهذا العلم؟ كيف تمثل الحجاج في بلاغة الجاحظ؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات اخترت المنهج التاريخي للوقوف على بدايات هذا العلم وإلى أن وصل إلى الجاحظ.

والمنهج الوصفي التحليلي لوصف البلاغة كعلم والكشف عن الآليات المستخدمة فيها وسنركز على الحجاج، وقد توصلنا إلى أن البلاغة عند الجاهليين كانت نابعة عن فطرتهم وسليقتهم، وكانت عبارة عن أفكار وآراء متناثرة تطورت إلى أن وصلت إلى الجاحظ الذي عمل على وضع قواعد وتعريفات لها، وحاول الكشف عن دور الحجاج كآلية لا يمكن الاستغناء عنها في بلاغة الخطبة.

1- البلاغة قبل القرآن:

تميز العصر الجاهلي وهو عصر الشعر والشعراء بالتفنن في الأقاويل الشعرية، فالعرب آنذاك كانوا على قدر كبير من الفصاحة التي نجدها مجسدة في قصائدهم التي تعكس حسن الكلام وطلاوته مع بيان ودقة الأسلوب، ومع هذا كان الشعراء يحتكمون إلى ناقد ليفاضل بينهم أو يبين مكانم الجودة والرداءة عندهم، وأشهر هؤلاء النقاد النابغة الذبياني، والذي كانت تضرب له قبة حمراء من آدم في سوق عكاظ، وهو سوق بمكة اتخذها أهل مكة مكانا لممارساتهم التجارية يؤتى إليه من جميع الأماكن، وكان يأتي الشعراء النابغة ليحكم على قصائدهم وذلك لعلمهم بكلام العرب ومعرفته للتراكيب والأساليب اللغوية إضافة إلى سعة ثقافته وغزارة علمه، فكان يتوجه بنقده إلى طبيعة ألفاهم أو المعنى أو الصور البيانية والتراكيب اللغوية.

ومن أمثلة آراءه النقدية؛ حكومته النابغة على كل من حسان بن ثابت والأعشى والخنساء، حيث "فضل الأعشى على حسان بن ثابت، وفضل الخنساء على بنات جنسها، وفضل شعرهما على شعر حسان، فكانت ثورته عليه وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك وأنشدته:

لنا الجفنيات الغريلمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت الجفنيات فقللت العدد، وقلت يقطرن من نجدة دما، فدللت على قلة القتل، ولو قلت: يجرين لكان أكثر لانصباب الدم، وفخرت بمن ولدت، ولم تفخر بمن ولدك، فقام حسان منكسرا منقطعا"¹

فالناقد لم يكن يقبل أي شعر، كما أنه لم يعتمد على الذوق فقط بل ركز على الألفاظ وذلك لتؤدي المعنى المراد، أليس هذا من البلاغة؟

و"الاصطلاحات البلاغية أول ما نشأت لم تكن واضحة المعالم دقيقة التعريفات، وإنما كانت مجرد ملاحظات عابرة يدركها العرب بحكم ذوقهم وسليقتهم في التمييز بين

¹ الأصمهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب، بيروت، لبنان، ج9، دط، دت، ص340.

الكلام والبليغ وبين ما هو أقل درجة منه، وبين ما هو عارض من سمة البلاغة"¹، أي أن إدراك العرب لبلاغة الكلام كان بسليقتهم ونابعا من الفطرة، ثم صقلوها من خلال الدربة والمران، وهو ما ساهم في بناء صرح البلاغة الأول، فهي لم تصل إلى تلك المرحلة من النضج والكمال مرة واحدة بل كانت لها بداياتها التي يعكسها العصر الجاهلي "فإن أمرا لا ينكر أن هذه البدايات تشكل جزءا من الصورة البلاغية التي تلتها مفردات أخرى على توالي العصور، واختلاف الزمان والمكان"²، لأن العرب عرفوا بفصاحتهم وبلاغتهم في التعبير، وقدرتهم على تخير اللفظ الجزل فتكونت لديهم ذائقة فنية، لكن لم تكن للبلاغة قواعد وقوانين تضبطها كعلم، بل كانت شذرات منتثرة، مرت بعدد من المراحل حتى أصبحت علما مستقلا بذاته، ومعروف عن العرب فصاحتهم وحسن بياهم حتى أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت من جنس ما ميزهم، ورغم ما وصلت إليه العرب من بلاغة إلا أنها تبقى مبنية على الذوق ونتيجة للفطرة التي جبلوا عليها، غير قائمة على تعليل أو تفسير، وإن كان هناك تعليل فهو لم يوضع ضمن قاعدة يلتزم بها العرب، لكنها شكلت قاعدة لما وضعه البلاغيون في العصور التالية.

ثانيا. البلاغة في عصر الإسلام-بعد نزول القرآن-

نشأت البلاغة العربية في أحضان الدراسات القرآنية، وجوهر ظهورها هو الكشف عن الإعجاز القرآني، ومعرفة أين يكمن سر الإعجاز فيه؟ كما أنها جاءت للدفاع عن الدين الإسلامي من خلال الحجج والبراهين واستعمالها للوقوف في صف هذا الدين، من خلال الحجج والبراهين واستعمالها للوقوف في صفه، يقول محمد بدري عبد الجليل "كانت البلاغة بذلك من عوامل الاستدلال على صحة العقيدة"³.

معجزة الإسلام هي القرآن هذا الخطاب الذي جاء بلغة العرب، لكن أضفى عليها بيانا وسحرا غير مسبوقين، فكان عاملا في تطور اللغة وثناء معانيها سواء في التراكيب أو الأساليب وتلك الصلة التي وضعت اللفظ ضمن المعنى المراد، فما كان يقوم به العلماء للكشف عن هذه العلاقات ساعد في نشوء البلاغة، وتلك الحوارات التي دارت حول

¹ عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2000م، ص8.

² محمد حمدي بركات، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط،

دت، ص17.

³ عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دت، دط، ص12.

الإعجاز القرآني كان لها دور كبير في تطور القضايا والدراسات النقدية والبلاغية يقول جون ستيوارت ميل "إلا أنه من المعروف في العلوم الإسلامية أن أعظم التطورات في حقل النقد الأدبي، والدراسات البلاغية قد تم إنجازها أثناء المناقشات الخاصة بإعجاز القرآن. فالبلاغة درست القرآن وجعلت من آياته أداة تلج من خلالها لمعرفة ما فيه من حسن تأليف وتركيب، فقد "كان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدارا للدراسات البلاغية، واتخاذ آياته البيانات شواهد على أبواب البلاغة وموضوعاتها، واعتبارها مثالا يحتذى في جمال النظم ودقة التركيب"¹، فالعرب وهم أصل الخطابة والبلاغة وقفوا عاجزين أمام هذا الكلام الذي لا يضاهيه كلام، والذي تحداهم فيه الله عز وجل أن يأتوا ولو بآية مثله فعجزوا، وعظمة القرآن الكريم يشهد لها حتى أعداء الإسلام "فالوليد بن المغيرة عم أبي جهل كان من عظماء قريش، وفي سعة من العيش، لما سمع من النبي "إن الله يأمر بالعدل والإحسان "[النحل:90]، طلب إعادتها عليه، ثم قام لقومه بني مخزوم وقال :والله لقد سمعت من محمد كلاما؛ ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلو وما يعلو"²، فالوليد بن المغيرة وهو ألد خصوم النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد سماعه لأحد آيات القرآن الكريم بمجرد سماعه لأحد آيات القرآن الكريم، وجد نفسه أثنى عليها، وأيقن أنه لا يمكن المعجى بكلام يفوق القرآن، ولا حتى يوازيه، فأدرك أنه ليس بكلام البشر، ولا كلام جن، وأن فيه من الحلاوة والطلاوة ما جعله كلاما معجزا فاق حدود قدرات البشر، ولا ننسى أن قريش كانت المكان الذي يؤتون إليه من الجهات الأربعة ليحتكموا عند نقادها، وصاحب الأغاني يقول "العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولا، وما ردوه منها كان مردودا"³.

وأصل البلاغة القرآن، لكنها ظلت في حضيض النقد، لم تخرج منه إلى غاية عصر التدوين مع بروز اللغويين والنحويين الذين قعدوا لها، ووضعوا قواعدها وأصولها.

¹ عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص8.

² القاضي عياض بن موسى المحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، بيروت، دار الفكر، 1988م، ج1، ص262.

³ الأصمهاني أبو الفرج، الأغاني، ج10، ص206.

ومن بين النماذج النقدية التي حوت لمحات بلاغية، "ما جرى بين كل من الشاعر جرير والشاعر عمر بن لجأ اليتيمي ذلك أن جرير والشاعر عمر بن لجأ اليتيمي ذلك أن جريراً سمعه ينشد في أرجوزة له يصف إبله فيقول:

قد وردت قبل إني ضحائها وتفرسُ الحيات في خرشائها

جر العجوز الثني من رداءها

فتعرض له يقول: كان بك أن تقول: "جرّ العروس" لا "جرّ العجوز"، التي تتساقط خورا وضعفا"¹

ونجد الكثير من هذه النماذج في هذا العصر، مع حكام العصر الأموي وشعرائهم الذين نهضوا بالنقد والشعر وتأثرت بهما الباغية وتطورت معهما، ومع تقدم الزمن زاد الاهتمام بها، فبينما كانت تستشف من سياق الحديث بدأت توضع لها تعريفات، فعبد الله بن المقفع "لما سئل: ما البلاغة قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى. والإيجاز هو البلاغة"².

والملاحظات البلاغية تطورت مع النحاة واللغويين، فكتب اللغة كان لها الأثر البالغ على البلاغة وذلك للعلاقة القائمة بينهما، ومع دخول القرن الثالث الهجرية ظهرت الشعوبية، والتي عملت على التشكيك في القرآن والتقليل من شأنه والعرب، وما كان على أهل العلم إلا أن يدافعوا عن القرآن وعربية العرب ودأبوا على دراسته دراسة تظهر جمال أساليبه، وبيانها وما فيها من بلاغة تحملها ألفاظها، وتستقي من معانيها، للكشف عن الإعجاز القرآني والرد على الشعوبيين، وأهم من حارب هذه الفئة الجاحظ.

3- البلاغة التعريف والخصائص

من العلوم ما يظهر وينتشر ثم يضمّر، ومنها ما بقي إلى اليوم، يعرف حركة وتجديداً، والبلاغة إحدى هذه العلوم، التي لها من المميزات والخصائص

¹ ينظر، قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمة وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2003م، ط1، ص268.

² ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، تح المحتفي فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، 1968م، ص76.

ما يجعل منها علما دائما التطور على مر العصور، فهي ضاربة بجذورها في القدم، وممتدة إلى يومنا هذا، مع دخول تغيرات عليها لكن جوهرها نفسه.

1-3 مفهوم البلاغة

عرفها أحمد مطلوب في معجمه البلاغة فقال "البلاغة الانتهاء والوصول يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وظل وانتهى وبلغ بالشيء وصل إلى مراده والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب والبلاغة الفصاحة ورجل بليغ حسن الكلام فصيح، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، وقد بلغ بلاغة صار بليغا"¹

وفي قاموس المحيط للفيروزبادي الجذر بلغ الذي استخرجت منه كلمة بلاغة "بلغ المكان بلوغا وصل إليه، أو شارف عليه والغلام: أدرك وثناء أبلغ، أبلغ: مبالغ فيه، والاسم من الإبلاغ والتبليغ، وهما الإيصال"²

ويعرفها أبو هلال العسكري فيقول "البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلغتها قبل غيري... فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"³ من خلال هذه التعاريف اللغوية تحمل دلالة الوصول والانتهاء

أما اصطلاحا:

فقد ذكر تعريف البلاغة من قبل العديد من البلاغيين الذين حاولوا تحديد مفهومها الرماني يعرفها بقوله "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"⁴ أما السكاكي في كتابه مفتاح العلوم فيرى أن البلاغة "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاصه بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والكتابة على وجهها"⁵

4- الحجاج

يمكن اعتبار الحجاج وسيلة تسهل عملية التواصل، فيمكن من خلاله إيراد الفكرة المنوطة إيصالها وإقناع الآخر بها، وقد أقيمت له العديد من التعريفات من بينها:

¹ أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، ص 235.

² محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2007م، ص 796.

³ أبو هلال العسكري، الصناعتين (الكتابة والشعر)، دار المعارف للنشر والتوزيع، ط 1، ذت، ص 6.

⁴ مهدي صالح السمراي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 1، 1977م، ص 291.

⁵ السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، دت، ص 415.

الحجاج: "هو كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها"¹

ونقول "حاجته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حجته أي: غلبته بالحجج التي أدليتها...وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة والحجة الدليل والبرهان"²
بمعنى أن صاحب الحجة أو المحاج يعمل على إثبات رأيه وإيصاله للطرف الآخر كدليل على صحة رأيه أو كطريقة للإفهام وتبسيط الفكرة له.

وعادة ما يرتبط الحجاج بالخطاب "لا خطاب بدون حجاج"³، أي لا يمكن فصل الحجاج عن الخطاب كونه "المنطوق الذي يستحق أن يكون خطابا، وهو الذي يقوم بتمام المقتضيات التعاملية الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج، إذ حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"⁴
والجرجاني عرف الحجة على أنها "مادل به على به على صحة الدعوى وقيل الحجة والدليل واحد"⁵

فالحجاج سمة في الخطاب وطابع فيه، كما أنه لا يختص به علم بعينه، بل يتميز بالانفتاح على مختلف العلوم: في الأدب، الفلسفة، التداولية... يستعمل حسب مقتضيات ذلك العلم فيعرض فيها الشخص حججه ويقدمها للمتلقى بطريقة تؤثر فيه وتستميله وبالتالي إقناعه فيكون خطابه خطابا ناجع.

1.4 بواعث الحجاج

عملية التواصل تكون في إطار خطاب يضم طرفين أو أكثر ويكون هذا الخطاب من أجل إما عبارة إخبار أو إقناع لوجهة نظر فالقصد من الخطاب "التوجه إلى الآخر قصد إفهامه مرادا مخصوصا، من غير أن

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكون العقلي، المركز الثقافي للعرب، الدار البيضاء، المغرب، 1988م

² ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان "28"، 1997م، مج2، مادة حجج، ص27.

³ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص13.

⁴ المرجع نفسه، ص226.

⁵ علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تح إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ،

يسعى إلى جلب اعتقاد أو دفع انتقاد، ولا أن يزيد في يقين أو ينقص من شك، وإنما حقيقة الخطاب تكمن في كونه يضيف إلى القصدتين المتخاطبتين المذكورتين قصدتين معرفيتين هما "قصد الادعاء" و"قصد الاعتراض"، وهذان القصدان من بواعث الحجاج. فالادعاء بأن يكون الناطق مقتنعا بما يقول، ومستعدا للإقناع وإتيان الحجة بما قيل له.

أ. الاختلاف: كل من طرفي الخطاب يعمل على إقناع الآخر "لأن المتحاورين لا يتقاسمون في كل الأحوال نفس المعارف ونفس المقتضيات الحوارية، وهو ما يجعل طبيعة الاختلاف الموجود بينهم تلعب دورا مركزيا في تحديد نمط الحوار الذي يمكن أن يتخذ سبيلا ناجعا لرفع أوجه التباين بينهم"¹.

إذن يمكن اعتبار الاختلاف الأساس الذي يبني عليه الحجاج والباعث الأول له "بل إن الحجاج ينبنى عليه"²، فالحجاج لا يكون إلا إذا كان تباين في رأيين لطرفين لأنه لا يمكن أن يكون على قضية متفق عليها، ويقوم على حوار يقوم فيه كل منهما بتأييد رأيه وإثباته عن طريق حجج وبراهين "فالحجاج المحكم هو الذي يكون فيه بمقدور مختلف الأطراف المحاجة الدفاع عن تصوراتها، وفق الشروط المتواضع عليها بدون إفراط ولا تفريط"³، أي أن الحجاج هو نتيجة للاختلاف ويمثل بالنسبة له حلا حين ينتهي الحوار باقتناع أحد الطرفين برأي الآخر أي نجاح أحدهما في إقناع الآخر إذن يمكن اعتبار الحجاج أداة للفصل في الاختلاف.

ب. قصد الادعاء: الادعاء هنا هو أحد أسباب الحجاج، فلا يمكن أن يقوم الحجاج دون وظيفة الادعاء فهو يستلزم "أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا، حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد، لما يقول من نفسه، وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة ذلك أن الخلو عن الاعتقاد، يجعل الناطق إما ناقلا لقول غيره، فلا يلزمه اعتقاده، وإما كاذبا في قوله، فيكون عابثا باعتقاد غيره، ولأن الخلو عن الاستعداد للتدليل يجعل الناطق إما متحكما بقوله، فلا يتوصل إلا بالسلطان، وإما مؤمنا بقول غيره، فلا يحتاج

¹ حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004م، ص12.

² المرجع نفسه، ص12.

³ المرجع نفسه، ص12.

إلى برهان.¹، فالخطاب لا يستقيم دون ادعاء يكون فيه المخاطب على دراية بما يقول فيدعي صحته ويحاول إثبات ذلك، فيسلم به الطرف الآخر باقتناعه، أو دحضه.

5- بلاغة الحجاج عند الجاحظ

من الأحسن الحديث البدء في الحديث عن الحجاج من كتاب البيان والتبيين، إذ يعد مؤلفه "الجاحظ مؤسس البيان العربي"²، وواصف حاله قبله، إلا أن كتابه، لم يكن يختص بالبلاغة وحدها، وإنما فيه كما قال أبو هلال العسكري "أن الابانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير"³، فهي ليست مرتبة كعلم أو كموضوع له تعريفه وعناصره بل نجدها منثورة في مختلف أجزاء الكتاب، ونستشفها أحيانا من الشواهد التي يقدمها.

وفي تأملنا لحديث الجاحظ عن البلاغة نجده يذكر الحجاج بعده وجها من أوجه البلاغة والتفت إليه في عدة مواضع منها قوله "قال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذ كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر"⁴، أورد الجاحظ قول بعض أهل الهند مشيرا إلى حسن اختيار الحجج التي تتناسب بدورها مع المقام الموضوع فيه مع النظر إلى الكناية كأداة لتحقيق الغاية وهي الافناع، وذلك إذا كان التصريح لا يؤدي هذه الوظيفة، كما أن الجاحظ جعل من بين وظائف الحجج الوظيفة الدينية، ويكون هدفها اقناع الخصم، واستعمال الحجة بما يتوافق مع الدين الإسلامي، ويظهر هذا من خلال ذكره للسؤال الذي وجه لعمر بن عبيد من طرف حفص بن سالم عن ماهية البلاغة فأجابه "فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الافهام، قال:

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكون العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، الرباط، ط1، 1998م، ص225.

² قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ، تح عبد الحميد العباد، دار الكتب العلمي، بيروت-لبنان، 1980م، ص3.
³ أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص10

⁴ الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2003م، ج1، ص18.

نعم قال: إنك أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة عن المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب"¹، ارتبط مفهوم البلاغة بما يخدم العقيدة الإسلامية فربط الجاحظ جوهر البلاغة أن تستعمل الحجة فيما يتماشى مع ما فرضه الله مع استعمال ما كان حسنا من الألفاظ، وما تستسيغه الآذان، ويدخل الأذهان، وتقبله العقول، وطبعا هذا لا يتحقق إلا إذا ارتقى المحاج بأخلاقه إلى قول الحق ولا ينحرف عنه، مترفعا عن الكذب، فلا يتخذ من الحجة وسيلة للدفاع عن الباطل أو أداة لدحض الحقيقة وتزييفها إذ "لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلافة، ولا يستعمل المواردية، ولا يهمز ولا يلمز"²

ولعل ما جعل الجاحظ يهتم بالحجاج، انتماءه إلى المعتزلة الذين يعرفون بالدفاع عن آراءهم، ومحاولة دحض آراء خصومهم "فهو صاحب نحلة تتخذ من اللغة والخطابة سلاحا للمتحاورين والمتناظرين الذين يبتغون الانتصار للمذهب وتحقيق الاقناع"³ ويكون ذلك بالدفاع عن موقفهم عن طريق الاحتجاج وهو ما يظهر في قوله عن واصل بن عطاء "كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لا بد له من مقارنة الأبطال و من الخطب الطوال"⁴ فقد تميز واصل بخطبه الطوال واستعماله للحجج التي ينتصر بها على غيره، وتأثر الجاحظ به وهو أحد المعتزلة وظهر هذا التأثير بالخطب واستعمال الحجاج في كتابه.

ونجد أن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، ربط وظيفة البيان بكل من الإفهام والحجاج (الاقناع)، واهتمامه بهذه الأخيرة يظهر في قوله "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه فضل التصرف في

¹ المصدر نفسه، ص 114.

² المصدر نفسه، ص 18.

³ عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط 1، 2013، ص 61

⁴ عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 61.

كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليمًا.¹ تركيزه هنا أتى على المتكلم الذي له دور الاقناع، وكيف يجب أن تكون طريقتة في التخاطب، كون تأثير المتلقي واقتناعه يتوقف على هذه الطريقة التي يبني عليها الحوار، فيجعل لكل مقام مقال حتى يحقق غاية الاقناع، فالجاحظ قام ببيان المميزات التي يجب أن يتحلى بها المخاطب سواء في لغته أو لسانه أو أخلاقه، فنجاح هذه العملية الخطابية أو فشلها مرهون عليه، وتشترط فيه مجموعة من المؤهلات التي تقنع المتلقي وأهمها امتلاكه للكفاءة اللغوية التي تؤثر في المتلقي، فيكون عارفا بأسرار اللغة وحقائقها، وتكون له قدرة على الابداع وإنتاج العبارات وخلق للصور البليغة فقد "ربط مفهومي البيان والبلاغة بالإقناع، هذا ما جعل غايته في البيان والتبيين هي الخطاب الإقناعي الشفوي"²، فقد أولاه أهمية كبيرة من خلال عدّه "مسؤولا مسؤولية مباشرة عن نجاعة الخطاب الحجاجي"³ بطرحه لفكرته ومحاولة اقناع الطرف الآخر بها "بالوسائل والآليات التي من شأنها إذا ما أدرجت باعتدال في الخطاب أن تحرك المعنيين بالكلام صوب الفعل والتغيير" والمعني هنا هو المخاطب الذي "لولاه لما كان هناك حجاج أصلا... الذي يسهم بصفة فعلية في تشكيل المعالم الكبرى في للمادة الحجاجية المقدمة من قبل الخطيب"⁴، نستشف دوره من خلال مساهمته في إنجاح الخطاب وتأثيره عليه فهو "يعد عاملا مهما في إنتاج الخطاب والحجاج وتوجيهه"⁵

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ص 92.

² ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، بيروت، ط1، 2004م ص448.

³ علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج-رسائله أنموذجا-، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2010م، ص312

⁴ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج2، ص188

⁵ ينظر، أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب الحجاجي في ضوء البلاغة الجديدة، شركة المدارس، المغرب، ط1، 2011م، ص138.

حاول الجاحظ وضع نظرية لبلاغة الحجاج في الخطاب ومراعاة أحوال المتخاطبين ومقاماتهم، ومحاولة الوصول إلى غاية الفهم والافهام من خلال استعمال الحجاج كبناء فيه من الأدلة والبراهين ما يقنع الطرف الآخر

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث نخلص إلى مجموعة من النتائج التي نلخصها في النقاط الآتية:
- ارتبطت البلاغة في بداياتها بالفطرة والذوق، ثم تطورت وأصبحت علما له قواعده وأصوله

- ارتبط الحجاج بتقديم الحجج التي تؤدي إلى اقناع المخاطب
- يعد الجاحظ المؤسس الفعلي للبلاغة العربية وامتدادا لما قدمه من سبقه بالتأصيل لها

- ارتبط الحجاج منذ القديم بالخطابة التي أبرز الجاحظ ملامح الحجاج فيها
- أثرت طبيعة الجاحظ الاعترالية على توجيه منحاه الحجاجي، من خلال توظيفه للحجج في الخطاب كرد على من يخالفه الرأي.
- يعد الحجاج أحد وظائف البلاغة، وشكلا من أشكالها، ولا يمكن اعتباره علما قائما بذاته

- الغاية من الحجاج هي الوصول إلى إقناع المخاطب واستمالته من خلال الحجج التي يبنمها المخاطب لإيصال فكرته واستثارة النفوس.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، دارصادر، بيروت، لبنان، 1997م، مج2، مادة حجج.
2. أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2006م.
3. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون.
4. الأصبهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب، بيروت، لبنان، دط، ج9، ص340.
5. الأصبهاني أبو الفرج، الأغاني، ج10.
6. الجاحظ، البيان والتبيين، تح المحتفي فوزي عطوي، بيروت، دارصعب، 1968م.
7. الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، ج1، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 2003م.
8. حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، افريقيا الشرق، المغرب، 2004م.
9. السكاكي، مفتاح العلوم، ط1، دار الكتب العالمية، بيروت، دت.
10. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكون العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، الرباط، 1998م.
11. عبد العزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
12. عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ط2، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م.
13. عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ط1، منشورات صفاف، بيروت، لبنان، 2013.
14. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، بيروت، 2004م.
15. علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تح ابراهيم الأنباري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ.
16. علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج-رسائله أنموذجاً-، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م.
17. القاضي عياض بن موسى المحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، بيروت، دار الفكر، بيروت، 1988م.
18. قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ، تح عبد الحميد العباد، دار الكتب العلمي، بيروت-لبنان، 1980م.
19. قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان معاملة وأعلامه، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2003م.

20. محمد بن يعقوب الفيرزبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م
21. محمد حمدي بركات، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
22. أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب الحجاجي في ضوء البلاغة الجديدة، ط1، شركة المدارس، المغرب، 2011م.
23. مهدي صالح السمرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط1، المكتب الإسلامي، دمشق، 1977م.

